

الدرس التاسع والأربعون: حسن الخلق

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع حلم عمر بن الخطاب ☺ مع عيينة ابن حصن، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ☺ قَالَ: قَدِمَ عَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُدَيْفَةَ فَتَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْفُرَاءُ - أَي الْعُلَمَاءُ وَالْعِبَادُ - أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنَ لِي عَلَيْهِ؟ قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ☺ : فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعَيْنَةَ فَأُذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيَ يَا بْنَ الْخَطَّابِ فَوَاللَّهِ مَا نُعْطِينَا الْجَزَلَ وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَعَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {خُذْ الْعَقْوُ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف:199]، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ وَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ (1).

إخوتي في الله، عليكم بحسن الخلق فإن كثيراً من العصاة والفجار والفساق كانوا يرون من حسن خلق الصحابة والتابعين ما يجعل قلوبهم ترق وتلين ويتركون ما كانوا عليه من الفسق والفجور، وهذا كثيراً جداً في عهد الصحابة والتابعين، ومنها قصة صلّة بن أشيم رضي الله تعالى عنه - وهو من التابعين -، لما كان يذهب إلى الصحراء في الليل ويمر بشباب يلهون ويعبثون - مثل ما نرى الشباب هذه الأيام في الكازينوهات والملاعب - في الليل، فقال: إن قوماً - أي يضرب لهم مثلاً وهو يمشي - كانوا مسافرين قضوا الليل في اللعب وغفلوا في النهار فأنى يدركون

(1) (صحيح) أخرجه (خ) 4366.

الطريق أو فأنى يصلون، يضرب لهم المثل أول الليل ويمشي، وفي اليوم الثاني قال أحدهم: والله إنه ليريدنا ويعيننا، ويقول لنا: نحن أمامنا طريق، وأمامنا سفر وهو الانتقال إلى الدار الآخرة، ومع ذلك نضيع هذه الأوقات، فأفاقوا من غفلتهم، وكانوا قرابة العشرين شاباً فأصبحوا من خيار شباب الإسلام لقد استيقظوا بحسن الخلق في الدعوة، وبحسن التعامل وبالرفق (67).

كما أن حسن الخلق يقرب العبد إلى الله جل وعلا ويرفع درجته في الجنة، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى مكارم الأخلاق.

قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَنِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (164)} [آل عمران:164].

فالعبادات من مقاصدها حسن الخلق فمثلاً الصلاة ثمرتها تجنب الفحشاء والمنكر، والصدقات ثمرتها تزكية النفس من رذائل الأخلاق، والصيام ثمرته التقوى وهو الإتيان بالأوامر وتجنب النواهي وكل الأوامر والنواهي مفضية لحسن الخلق والحج ثمرته حسن الخلق وذلك بتجنب الرفث والفسوق والعصيان.

فلا ينبغي أن يكون الدين في المسجد فقط يصلى الرجل مع المصلين وخارج المسجد يتكبر ويلعن ويؤذى ويسخر ويضرب ولا يعطى الناس حقوقهم ويخلف المواعيد ويكذب فهذا كله من مساوئ الأخلاق.

معاشر الإخوة، هناك فضائل كثيرة لحسن الخلق، من أعظمها أنه سبب في مرافقة النبيين وجوار الصالحين مع الذين أنعم عليهم رب العالمين، نسأل الله العظيم أن يبلغنا الجنة بمنه ورحمته وهو أرحم الراحمين، فعن أبي الدرداء (رضي الله عنه)، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبِذِيءَ" - (1).

وَعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ الرَّجُلَ لَيُذْرِكُ

(1) (صحيح) أخرجه (ت) وصححه الألباني في ص. ج 5632.

بِحُسْنِ الْخُلُقِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ - (1).
وَعَنْ جَابِرٍ (رضي الله عنه)، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا" - (2). وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ، أَنَّهُ وَصَفَ حُسْنَ الْخُلُقِ فَقَالَ: هُوَ بَسْطُ الْوَجْهِ وَبَدَلُ الْمَعْرُوفِ وَكَفُّ الْأَدَى.

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَحْقِرَنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ" - (3).

فطلاقة الوجه تدخل السرور على من قابلك، وعلى من اتجه لك، وتجلب المودة والمحبة، وتوجب انشراح القلب، بل توجب انشراح الصدر منك وممن يقابلك، وجرب تجد، لكن إذا كنت عبوساً فإن الناس ينفرون منك، ولا ينشرحون بالجلوس إليك، ولا بالتحدث معك، كما أن مساعدة الناس وكف الأذى عنهم من حسن الخلق. هذه الأصول الثلاثة التي يدور عليها حسن الخلق في معاملة الخلق.

وَالْأَخْلَاقُ مَنحَةٌ مِنَ اللَّهِ جَل جَلَالِهِ، أَلَا وَإِنْ أَحَقَّ النَّاسُ بِأَخْلَاقِكَ وَأَحَقَّ النَّاسُ بِعَطْفِكَ وَحَنَانِكَ وَبِرِّكَ وَإِحْسَانِكَ وَمِنْ تَظْهِرُ لَهُ الْخُلُقُ الْحَسَنُ وَالدَّائِكُ ثُمَّ أَهْلُ بَيْتِكَ: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء: 23].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِيهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي" - (4).

إخوتي في الله، هناك وسائل مفيدة لتحسين الخلق نذكر منها:

1 - المجاهدة، فالمجاهدة تنفع كثيراً في ذلك لأن الخلق الحسن نوع من الهداية يحصل عليه المرء بالمجاهدة، قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: 69].

(1) (صحيح لغيره) أخرجه (حم) 25578 وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(2) (صحيح) أخرجه (ت) 2018 وصححه الألباني.

(3) (صحيح) أخرجه (م) 2626.

(4) (صحيح) أخرجه (ت) وصححه الألباني في ص. ج 3314

2 - مراقبة النفس ومحاسبتها، وذلك بنقد النفس إذا ارتكبت أخلاقاً ذميمة، وحمّلها على ألا تعود إلى تلك الأخلاق مرة أخرى، مع أخذها بمبدأ الثواب إذا أحسنت، وأخذها بمبدأ العقاب إذا توانت وقصرت.

3 - التفكير في الآثار المترتبة على حسن الخلق، فإن معرفة ثمرات الأشياء، واستحضار حسن عواقبها من أكبر الدواعي إلى فعلها.

4 - النظر في عواقب سوء الخلق، وذلك بتأمل ما يجلبه سوء الخلق من الأسف الدائم، والهم الملازم، والحسرة والندامة، والبغضة في قلوب الخلق.

5 - الدعاء، فالدعاء باب عظيم ولهذا كان النبي يقول في دعاء الاستفتاح: اللهم اهديني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت.

6 - الصبر من الأسس الأخلاقية التي يقوم عليها الخلق الحسن؛ فالصبر يحمل على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم، والأناة، والرفق، وترك الطيش والعجلة.

7 - تكلفُ البشر والطلاقة، وتجنّبُ العبوس والتقطيب.

8 - التغاضي والتغافل والحلم، قال ابن الأثير عن صلاح الدين الأيوبي: كان حليماً حسن الأخلاق، متواضعاً، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره، ولا يعلمه ولا يتغير عليه.

9 - الإعراض عن الجاهلين والعفو والصفح، قال تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199].

10 - تجنّب الغضب؛ لأن الغضب جمة تتقد في القلب، واحتساب الأجر عند الله فهذا الأمر من أعظم ما يعين على اكتساب الأخلاق الفاضلة (4).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

* * *